

كيف نقرأ؟

أ.د. محمود توفيق محمد سَعد (*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

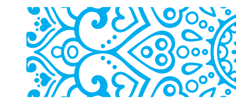
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)

إِذَا ما كانَت كيفيّةُ القِراءةِ مَرهُونة بِبواعِثِ القراءةِ على ما بينت بعضَها قبلُ، فإنّها أيضًا محكومَةٌ بِنـوعِ المقروءِ: مجالِه العلميِّ والمعرفيّ، ومسـتواه، وموقعِهِ فِي المدوَّنـة العِلميَّة والمَعرفِيّةِ الَّتي يَنتمِي إليْها، ثُمَّ بمكانةِ صانِعهِ وبِتكوينه العقليِّ والنَّفسيّ والبيانِيّ.

كلّ ذَلِـك لَـهُ أثرٌ بالـغٌ في تحريـرِ كيفـيَّة القراءةِ، فلـنْ تجدَ ذا حِكمـةٍ يقرأُ كتابَ «سـيبويهِ» (ت:١٨٠هـ) كمثـل ما يقرأ كتابَ «المُقتضَـب» للمبرد (ت: ٢٨٥هـ)، وهو منـه مقتضبٌ، أو أيّ كتابٍ من كتبِ «النّحو»، ولا يقرأ كتاب «الرّسالة» للشَّافعيّ (ت: ٢٠٤هـ) كما يقرأ كتاب «البُرهان فِـي أصولِ الفقـهِ» لأبي المعالي إمامِ الحرميْـنِ الجويني (ت: ٤٧٨ هـ) وهمـا فِي باب واحد من العلمِ، ولا يقرأ كتابَ «دَلائل الإعجازِ» لعبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) كما يقرأ القسـم الثَّالث مـن كتاب «مفتاح العلوم» لأبي يعقوب السَّـكاكيّ (ت: ٦٢٦هـ)، بلْ لا يقرأ كتابَ «دلائل الإعجاز» كما يقرأ كتاب «أسرار البلاغة» له، فَلِكُلٍّ ما يَمتَازُ به موضوعًا ومنهاجَ تفكيرٍ وتعبيرٍ، وكذلك لا يقرأُ كِتابَ «نَقدِ الشّعر» لِأبي الفَرج قُدامَة بنِ جَعفرٍ (ت: ٣٣٧هـ) كما يقرأ كتابَ «العُمدَة فِي مَحاسِنِ الشّـعرِ وآدابِهِ» لأبي عَلِيٍّ الحَسَنِ بن رَشـيق القَيرَوانِيّ (ت: ٤٦٣ هـ)، وَهَكذا، ومَنْ لَمْ يُفَرِّقْ، فَلَنْ يَكُـونَ يومًا قارئًا، وإنْ أنفقَ عُمُره كلَّه فِي هـذا، فما أنت القارئُ بِكثرةِ ما تقرأُ ووفرتِه، بلْ بكيفيّةِ قراءتِك. وَهَذا يَعنِي أنَّ فريضةً علَى القارِئِ المُثوِّرِ المُسـتَثمِرِ - وَلَيْسَ القارِئَ الحامِلَ - أنْ يكونَ علَى بَصِيرَةٍ بِشَـأنِ الفَنِّ الّذِي يَقرَأُ فيهِ مِنْ فُنُونِ العِلْمِ، وبِشَـأنِ السِّـفْرِ الّذِي يَقرَأُ، وبِشَأنِ الصَّانِعِ لذَلِكَ السِّفرِ، وَكذَلِكَ السِّياقاتِ العِلميّةِ والحضاريّةِ الَّتي صُنع فيها ذلك السِّفرُ، والغاياتِ الَّتي يُرمَى إليْها بِه، كُلُّ ذلكَ مِنْ بعدِ أنْ تَتبَيَّنَ لَه بَواعثُ القِراءةِ، وتَتَطهَّرَ ممَّا لا يَليقُ بِها فِعلًا تَعبُّديًّا إِصلاحيًّا لِلقارِئِ وقومِهِ وأُمَّتِهِ.

كَذلِك يَتَبَيَّنُ لَكَ أنَّ «القِراءَةَ» الَّتي نَتكلَّم فِي شـأنِها لَيستْ هِي الَّتِي دَرَجَ عَليها كثيرٌ مِن النَّاشِئةِ فِـي طَلَبِ العِلْمِ. يقول بعضهم مفتخرًا، وَما عَلِمَ أنّه يَهجُو نفسَـه: « قرأتُ ربعَ مليون«كتابٍ» فإنْ

(*) عضو هيئة كبار العلماء





صَدق - وَلا أَخالُهُ - فَمَا قَرَأَ كِتابًا عَلَى مَا تكونُ بِهِ القِراءَةُ الفاعِلةُ، وَكَأنّي بِمثْلِهِ لا يُفرّق بيْن قِراءةِ جَريــدةٍ يَوميَّة في أَخبارِ الناس والمجتمع، وقــراءةِ كِتاب «الخَصائص» لأَبي الفَتحِ عُثمان بن جِنّي (ت: ٣٩٢هـ) !!!

القِــراءةُ الّتي نَســعَى إليْها، وَنَدعُو أن تكون مِنهاجَنا إنّما هِي قِــراءةٌ تَعبّديّة إصلاحيّةٌ إعماريّة. قِراءةٌ تســتَمِدُّ خَصائِصها ممّا رواه أبو داود والنّســائيّ فِي سُننِهما وأحمدُ فِي مُسنده بسندِهم عَنْ أَنَسٍ (رضِي اللهُ عنه) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »[1].

القِــراءةُ هِي التــي تحقق لصَانعها اقتدارًا ووعيًا بمنهاج إعمار الحياةِ كونًا وإنســانًا وفق مرادِ الله الشّــرعيّ. هي القراءة الّتي تحقّق لِلألسِــنةِ المُؤمنةِ أنْ تكونَ أداةَ مُجاهدَةِ المُشركِين الصّادّين عَنْ سَــبيلِ اللهِ تعالى. ولاسيّما فِي زَماننا هذا الّذِي باتَتْ فيهِ الكلمةُ هِي السَّيفُ الّذي يَشهرُه أعداءُ الحقّ، يُفسِــدون به ما لا يُفسِدون بغيره ممّا جعلَ صِناعةَ اللّســانِ المُؤْمِنِ الحَكيمِ الفَتيّ الماضِي عَديل صِناعةِ الأسلِحةِ الثَّقيلةِ فِي الأَزْمِنةِ الغَابِرة.

واللّسانُ السَّيفُ، كَما اللّسانُ النُّورُ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ فَعيلًا إلَّا مِن قِراءةٍ حَكيمةٍ فتيَّةٍ مُقتَدِرةٍ علَى أنْ تُثوِّرَ المَكْنُوناتِ وَتَسْتَثمِرَ المَكنُوزاتِ مِنْ جليلِ البَيانِ الْحَكِيمِ الكَلِيمِ.

(أنْواعُ القِراءَةِ الفاعِلةِ)

القِــراءةُ الفاعِلةُ أربعــة أَنوَاعٍ مُتصَاعِدَةٍ تُبْنَى ثَانِيتُها عَلَى أُولاهَــا، وثالِثتُها عَلَى ثَانِيتِها، لا تغنِي الأولَــى عَن الثَّانِيةِ، ولا تَصلُحُ الثَّانِيةُ بِغيرِ الأُولَى، ولا تَكُــونُ الثَّالِثةُ بِغيرِ الأُولَى والثّانية، ولا تكون الرّابعة إلا بالثلاثة الأول، فما هِيَ بَأنْوَاعٍ متوازِيةٍ، كلَّا إنَّها أَنواعٌ مُتراكِبةٌ مُتصَاعِدَةٌ:

النّوعُ الأَوّل: (القِراءَةُ الاسْتِكْشَافِيّة): قِراءَةُ استهدَاءٍ تَجعَلُ القارِئَ عَلَى بَصِيرةٍ بِما يَقرأُ.

والنّــوعُ الثَّانِي: (القــراءة النقدية) قراءة تقوم على ثلاثة محــاور: التحليل المترتب عليه تأويل وتعليل، التّقويم والإصلاح، التّقدير والحكم على المقروء.

والنوع الثّالث: (الْقِرَاءَةُ الاسْتنباطيّة): قراءَةٌ تَسْتخرجُ مَا هُو مَكنونٌ مِنْ مَعدِنِهِ وتُهيّؤهُ لأنْ يفعلَ فِي القارِئ، فَيَفعلَ هو بِها في الحياةِ كَونًا وإنسَانًا فعلاً إصلاحيًّا إعماريًّا.

وَالنّوعُ الرابع: (القِرَاءَةُ الاسْتثماريَّة الإبداعيّة): قِراءَةٌ تُوجِدُ ممَّا هُوَ مَوجُودٌ مَا لَيْسَ بِمَوجُودٍ.

وكلُّ نوعٍ مِنْ هذه الأربعةِ الأنواعِ له اسْتحقاقاتُهُ؛ لِتكونَ لَه آثاره الحَمِيدَةُ في صَانعها.

(وهذا ما نبدأ في المقال القادم -إنْ شــاءَ الله تعالــى -في تقريبه وتقريره واللهُ - تعالى - هُوَ الْمُسْتعانُ عَلَى طاعَتِه، والْحَمدُ للهِ ربّ الْعالَمين).



(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم:١٢٢٤٦، وأبو داود برقم ٢٥٠٤، والنسائي في السنن الكبرى ٤٢٨٩.